وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الثانية

كيف حفظ الله ﷻ أرض الحجاز؟

عباد الله؛ ما زلنا مع السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، ما زلنا مع هذا النور الوهاج، الذي أفضى إلى ظلمات البشرية فانجابت كما ينجاب الغمام، ما زلنا مع الهدى الذي أرسله الله إلى الإنسانية فانتشلها من ضيعة وهلاك.

وعلى اتفاقنا أيها الإخوة المسلمون عباد الله؛ نريد من السيرة النبوية شيئًا ينمي الإيمان في قلوبنا، ويزكي الأخلاق في نفوسنا، ويلهب الكفاح في أعمالنا، ويغرينا باتباع نبينا عليه السلام، فالناس أخلاط متنافرون، لا تستقيم بهم السبل يوما إلا شردت أياما، ولا يتبعون الحق حينا إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحيانا، فبدلوا وغيروا وكان التبدل مروعا قلب نهارها ليلا ونعيمها ويلا.

عباد الله؛ نريد من السيرة النبوية أن نحب النبي عليه السلام حب اتباع، لا حب كلام، لا نريد أن يكون حبنا تراتيل تتلى في يوم مولده وفي يوم وفاته، لا نريد أن يكون حبنا قصص للتسلية.

فما أرخص الحب إذا كان كلام! وما أغلاه إذا كان قدوة واهتمام!

عباد الله؛ لقد تكلمنا في الخطبة الماضية وبَيَّنَّا كيف كانت الجزيرة العربية، وكيف ولد المصطفى، وكيف رباه الله ﷻ، وتكلمنا عن جوانب من حياته، وعلمنا أيها الإخوة المسلمون عباد الله أن النبي عليه السلام في مجموع ما قلناه:

كمال خُلُقي، بجمال خِلقي، في حفظ إلهي، مع جلال نسبي، كان محمد النبي عليه السلام

واستمرت الحياة بالنبي عليه السلام قبل البعثة، وحدث ما حدث في السيرة النبوية، وقلنا: لا نريدها قصصا للتسلية، ولكن نريد أن نلقي الضوء على بعض جوانب السيرة، حتى لا يكون ثمة حاجز بين أعمالنا وأخلاقنا وبين السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.

تزوج عليه السلام من أمنا خديجة رضي الله عنها، وعاش النبي عليه السلام تحت كفالة جده، ومات جده فعاش تحت كفالة عمه أبي طالب، وكان فقيرا، فرعى النبي عليه السلام الغنم ثم تاجر في مال خديجة، وما زال في حياة الكد، والتعب، والرجولة.

ولكننا نريد في هذا اليوم أن نلقي الضوء على مقطوعة مباركة من السيرة، وهي عندما أرادت قريش أن تبني الكعبة.

لما أرادت قريش أن تبني الكعبة وذلك لتعلي سقفها وتسقفه، وكان في الكعبة كما ذكر أهل السير: حية تحت الكعبة تصعد على الجدران[1]، يقولون لها رأس كرأس الجدي، وكانوا يهابونها، فلما أرسل الله تعالى طيرا أخذ بتلابيب هذه الحية، فقالوا: الآن عندنا الخشب فنسقف، فبدؤوا في بناء الكعبة، وهم يعلمون شرف الحجر الأسود، فمن الذي يضع الحجر الأسود بعد ما بنوا الركن؟! فاختلفوا حتى كادت تنشب الحرب، ثم اتفقوا على أنه أول من يدخل هذا البيت هو الذي يحكم بيننا، فكان هو النبي عليه السلام، وكان عمره يومئذ خمسة وثلاثين عاما، فحكم النبي عليه السلام أن يوضع الحجر على ثوبه وتحمله القبائل حتى تصل إلى الركن، فيشتركون جميعا في حمل الحجر، ثم وضعه بيده الشريفة في الركن.

إن كان لقارئ السيرة أن يقرأ في هذا الحدث ويمر عليه مرور الكرام، فبإذن الله لم نمر هكذا، ننظر إلى هذا الحدث ونتعمق فيه، ما هذه المهابة التي وضعها الله عز وجل لبيته؟!! ما هذه المهابة وهذا التعظيم؟!! تعظيم الله عز وجل للبيت جعلنا نعظمه، وكذلك فالمشركون

[1] البداية والنهاية (٣/٤٩٠)، للحافظ ابن كثير رحمه الله.

كانوا يحجون البيت، وكانوا يهابونه ويعظمونه، لو ربطت هذا بما فعله الاستعمار في أوقات وأماكن كثيرة من الأرض، وأنه لم يأت إلى أرض الحجاز إلى مكان مكة ومكان المدينة، لقلت: إن هذا كله لا يأتي هكذا، فالاستعمار لم يحدث سوء في أرض الحجاز، أي (مكة والمدينة)، وهذان المكانان هما اللذان ولد ومات المصطفى عليه السلام فيهما.

إذن فهذه المنطقة، أي منطقة الحجاز -أي منطقة مكة والمدينة- لها تشريف ولها مهابة للمسلمين، وهذا التشريف جعله وبيَّنَه الله عز وجل.

فلننظر إلى أصول وجذور هذه المهابة، وإلى أصول وجذور هذه العظمة، وكيف أن الله حفظ هذا المكان حفظا عجيبا، فإذا أردنا أن نعرف هذا؛ فلا بد وأن نطلع على حفظ الله لهذه الأماكن تاريخيا ونفسيا.

أقول: إن مكة هذه ما كانت مكة، كانت صحراء جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، بين الجبال، وقالوا: إن أول من بنى الكعبة هم الملائكة، وقالوا آدم، ولكن ما ثبت يقينا في القرآن والسنة أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أخذ أمنا هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام في صحراء جرداء لا زرع فيه ولا ماء وتركها، هذا المكان وهذه البقعة التي وضعهما فيها هي البيت الحرام (الكعبة)، فقالت له أمنا هاجر المؤمنة: "**آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا**"[1]، فلما نفد الماء وجدت ابنها الرضيع سيدنا إسماعيل يتلوى، فأخذت تجري إلى أقرب جبلين الصفا والمروة، لم تجد ماء ولم تجد أحدا، ولكن الله تعالى فَجَّر تحت قدمي إسماعيل ماء زمزم فشربت، وأتت قبيلة جرهم وسكنت هناك وأصبحت مكة، وجاء بعد ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام وصار إسماعيل عليهما السلام شابا، فبنيا الكعبة،

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٣٦٤).

[البقرة: ١٢٧] ؛ والقواعد المذكورة في الآية هي القواعد التي تحت الأرض التي بُني عليها الكعبة.

ولكن بناء الكعبة عن طريق سيدنا إبراهيم ليس كما هو الآن؛ لو نظر أحد إلى الكعبة، لوجد مكانا يسمى بالحِجر، حجر إسماعيل كما يقولون، وهذا المكان كان داخل الكعبة، واستمرت الكعبة هكذا، وهدمت وبنيت وما إلى ذلك كما ذكر التاريخ، حتى أتت قريش فأرادوا أن يبنوها لهدم حدث فيها وما إلى ذلك، ولكن قصرت بهم النفقة؛ لأنهم لم يريدوا أن يدخلوا في نفقة بناء الكعبة إلا المال الحلال، فلم يستطيعوا أن يبنوا الجزء المقابل للحَجَر الأسود الذي فيه الحِجْر، فلم يبنوه، وتركوه هكذا كما ترون الآن.

ولما دخل النبي عليه السلام مكة وفتحها؛ قال لأمنا عائشة رضي الله عنها: **"يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ؛ لَأَمَرْتُ بالبيت فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ"**[1].

لأن قريشا لما بنت الكعبة جعلت باب الكعبة عاليا كما هو الآن، قالوا حتى لا يدخل فيها إلا من نريد، ولم يجعلوا لها بابا للخروج، ولكن النبي عليه السلام ما أراد وهم حديثو عهد بجاهلية أن يفعل شيئا يعلم أنه حق.

انظر هنا إلى أنك قد تكون في بعض الأحيان على حق، وقد يكون الحق معك مائة بالمائة ولكن إن جهرت به في وقت معين لا يحدث الخير الذي تريد، النبي عليه السلام لم يهدم الكعبة حتى لا تحدث فتنة بين المسلمين الذين كانوا حديثو عهد بجاهلية.

فلما مات النبي عليه السلام وبعده الخلفاء الراشدون بايع أهل الحجاز فقط عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على الحجاز، والدولة الأموية في بقية بقاع الدولة الاسلامية، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه خالته هي أمنا عائشة رضي الله عنها فعلم منها حديث النبي عليه السلام السالف الذكر،

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٥٨٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٣٣).

وصادف أن حدث حريق بالكعبة، فجمع ابن الزبير الناس وقال لهم ماذا نفعل؟ قالوا: لا نهدمها بل نصلحها، فقال لهم: هل لو حدث ذلك بيوتكم لفعلتم هذا؟ بل إني لفاعل كما أراد النبي عليه السلام، فلم تقصر بي النفقة وأستطيع، فهدم الكعبة وبناها على قواعد سيدنا إبراهيم وأدخل الحجر في الكعبة، ولما حفروا تحت الكعبة وجدوا قواعد إبراهيم، بل يقول أهل السير: أرادوا أن يحفروا للقواعد حتى تنزل فما استطاعوا، ولو وجدوا نارا تموج في أسفل هذه القواعد، فبنى على قواعد إبراهيم عليه السلام، وانتصر الحجاج بن يوسف على عبد الله بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان وقتل ابن الزبير، ثم أرسل إلى عبد الله بن مروان أن عبد الله بن الزبير هدم الكعبة وبناها بناء آخر، فأمره أن يهدم الكعبة مرة أخرى وأن يبنيها كما كانت، كما هي الآن.

ثم أتت الدولة العباسية، وفي عهد هارون الرشيد لما علم هذا الحديث؛ قال: إذن أبني الكعبة على قواعد سيدنا إبراهيم، أي يدخل الحجر في الكعبة، فاستشار مالك بن أنس فقال: «**ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تَجْعَلَ هَذَا الْبَيْتَ لُعْبَةً لِلْمُلُوكِ، لَا يَشَاءُ أَحَدٌ إِلَّا نَقَضَهُ وَبَنَاهُ فَتَذْهَبُ هَيْبَتُهُ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ**»[1].

والآن نستطيع أن نبني ألف كعبة من ذهب، ولكن أبى الله إلا أن تكون ناقصة حتى يعلم الإنسان أن كل مخلوق ناقص.

انظر إلى هذا التاريخ العظيم لبناء الكعبة، كل ذلك لنعلم أن الله عز وجل شرَّف هذا المكان تاريخيا، هذا المكان هو الذي ولد فيه المصطفى عليه السلام، والمدينة هي المكان التي مات فيه المصطفى عليه السلام، وقد وجدنا هذا الحفظ الإلهي.

هذا الحفظ كان في وقت النبي عليه السلام وفي وقت الدولة القوية؛ فكيف تحفظ هذه الأماكن بعد ذلك مع تقصير وغفلة المسلمين؟ من الأسباب العظيمة التي تؤدي إلى حفظ هذه

[1] شرح النووي على مسلم (٨٩/٩)، للنووي رحمه الله.

الأماكن المطهرة الحب، فكل المسلمون يحبون هذه الأماكن حب فطري في قلوبهم، وحب شرعي استنبطوه من الكتاب والسنة.

إذن فحبنا لهذه الأماكن المطهرة هو دعامة عظيمة للحفاظ عليها، وكل ذلك للحفاظ على هذه الأماكن التي سطر التاريخ فيها سيرة المصطفى عليه السلام.

العالم المصري الدكتور فاروق عبد البديع أثبت في بحث استمر به عشر سنوات أن الكعبة في منتصف وفي مركز الكرة الأرضية، الله عز وجل يجعل المكان هكذا، بالتوثيق التاريخي والجغرافي، حتى إنه قال لا بد وأن يكون التوقيت العالمي بتوقيت مكة وليس بتوقيت جرينتش، لأن توقيت جرينتش توقيت سياسي أما توقيت مكة فتوقيت علمي.

أقول أيها الإخوة المسلمون عباد الله: كل ذلك وكل ما نقرأه من شريعة أو من تاريخ يجعل الحب يزيد ويزيد في قلوبنا لهذه البقاع الطاهرة، كيف بنا عندما نعلم أن الله عز وجل يقول: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ﴾ [آل عمران: ٩٧]؟!! يأمرنا الله أن نحج بيته، هذا لمن استطاع إليه سبيلا.

كيف بنا ونحن نعلم أن الرسول عليه السلام قال: "**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**"[1]؟! كل ذلك يقوي الناحية الشرعية في قلوبنا، فتقابل الناحية الفطرية التي تجعلنا نحب هذا البيت، فيزيد الحب حبا.

النبي عليه السلام يبين أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة[2]، والصلاة في المسجد النبوي بأكثير من ألف صلاة[3]، ويقول: "**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٨)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٦).

[2] أخرجه الإمام ابن ماجه رحمه الله في سننه (١٤٠٦)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه رحمه الله (١٤٠٦).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١١٩٠)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٩٤).

وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ"[1]، ماذا يريد الإنسان في حياته إلا خيري الدنيا والآخرة؟!! فبالحج والعمرة يحصلهما.

ويقول: "**مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**"[2]؛ أتى هذا البيت، قال العلماء: حاجا أو معتمرا، فلم يفعل من الذنوب، وأطاع الله ﷻ رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

حتى قال أحد السلف عندما جاءه من يسأله في يوم عرفة: "**مَنْ أسوأ هذا الجمع حـــالًا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم**"[3]، فأول ذنب يكتب له أنه يظن أن الله لا يغفر له.

بل إن الرسول ﷺ قال: "**قَالَ اللَّهُ: إِنَّ عَبْدًا صَحَّحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ يَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لا يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ**"[4]، هذا هو المحروم الذي عنده سعة فلا ينتظر أكثر من خمس سنوات.

وكما جعلنا الله نحب مكة، جعلنا نحب المدينة على صاحبها الصلاة والسلام، ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٠]

قال المفسرون: مدخل صدق أي المدينة، ومخرج صدق هو مكة.

وقال النبي ﷺ: "**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ، كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ، أَوْ أَشَدَّ**"[5]، وجعل النبي ﷺ حرما في المدينة كما هو في مكة، بل بَيَّن النبي أن كل نقب، كل فج، كل طريق في المدينة عليه ملك حارس يحرس المدينة، ولهذا فإن المسيح الدجال يجول الأرض ولا يستطيع أن يدخلها[6].

---

[1] أخرجه النسائي رحمه الله في سننه (٢٦٣٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح النسائي (٢٦٣٠).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٨١٩)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه واللفظ له (١٣٥٠).

[3] حسن الظن بالله (٧٨)، للحافظ ابن أبي الدنيا رحمه الله.

[4] أخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (٣٧٠٣)، وقال الألباني رحمه الله في الترغيب (١١٦٦): صحيح لغيره.

[5] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٣٧٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٧٦).

[6] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (7134)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (2943).

وبَيَّنَ النبي عليه السلام قائلا: **"إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا"**[1]، فالإيمان يجتمع في قلبك في المدينة، كما تدخل الحية في جُحرها.

وبَيَّنَ النبي: **"مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ؛ أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ"**[2].

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، فحبنا لهذه الأماكن المطهرة والتقديس والتعظيم لهذه الأماكن ليس لحجارتها أو لترابها، بل لما وضعه الله سبحانه وتعالى في قلوبنا، هذا المكان الذي فيه كل هذا الخير هو ذات المكان الذي سطر فيه أهل التاريخ وعلماء الأمة تاريخ سيرة المصطفى عليه السلام، التي أرجو بإذن الله تعالى أن نستنبط منها هذه الثمار ونطبقها في أعمالنا، حتى تخرجنا من الظلمات إلى النور، إنه على كل شيء قدير.

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (1876)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٤٧).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٨٧٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٣٨٧).